

٣- التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

رأينا في المقال السابق كيف راح ابن شهيد يتهم بالأدباء الذين غمطوه فضله حقداً عليه ، وخطوا من قبره حسداً له ، وقد أبدى ابن شهيد - وهو بسبيل الكلام على أدب هؤلاء الأدباء - كثيراً من الآراء في النقد والبيان هي أهم وأقوى ما اشتمت عليه التوابع والزوابع ، بل هي أهم وأقوى ما لابن شهيد من الآثار الأدبية ، حتى من شعره على عدوبته ، ومن ثمره على ملاحظته ، فنحن بلا خلاف ننتقمه الناقد الأول بين النقاد الأقدمين في الأدب العربي ، ولكننا بلا خلاف لا نمتدحه الشاعر الأول ، ولا الكاتب الأول . ولما كانت هذه الآراء قد جاءت متتارة في الرسالة ، رأينا من الخير أن نجمع شتاتها وأن ننظمها في سمط واحد ، حتى تتبين منها مذهب الرجل في النقد واضحاً جلياً . وإذا كانت هذه الآراء قد شابهت شيئاً من حقد ابن شهيد وضمغه على معاصريه ، إلا أنها آراء صحيحة ثابتة ، تزداد على طول الزمن صحة وثبوتاً . وهذه الآراء في مجموعها تنقسم إلى شقين ، شق يرجع إلى شخصية الأديب ، وآخر يختص بالآثار الأدبية ، وإنما نعني بشخصية الأديب مواهبه العقلية ، واستمداده الفطري ، وسعة معارفه ، وهذه ناحية قد أبدع في بحثها ابن شهيد أيما إبداع ، وله فيها آراء قوية لم يسبقه إليها ناقد فيما نعلم ؛ فقد حاول أن يستخدم العلم والفلسفة في دراسة الشخصيات وتفهم الملامح الأدبية في الشخص ، ومقدار استمداده وطبعه ، والطبع - عند ابن شهيد - هو أهم ركن في شخصية الأديب ، بل هو المرجح الذي يرجع اليه سر البلاغة . فمن كلامه : « إن البيان هبة إلهية لا علاقة لها بالنحو والصرف ، واللغة والغريب ، وإنما الاختلاف إلى الأساتيد ، والتوفر على الدرس والبحث في بطون الكتب ، كل هذا لا يجدي ولا ينفع إذا لم تكن ثمة فطرة سمحة ، ونفس مجلوة ، وطبيعة مواتية . وقد روي في ذلك أنه التقى في وادي الجن بشيطان أنف النملة (وهو على علته زى علم ، وزنبيل فهم ، وكنف رواية) فأراد ابن شهيد أن يناوشه في اللغة

والنحو ، وطلب منه أنت يطارحه كتاب الخليل وشرح ابن درستويه ، فقال الشيطان : أنا أبو البيان ، وقد علمني المؤدبون ، قال ابن شهيد (ليس هو من شأنهم ، وإنما هو من تعليم الله حيث يقول : الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان) وإنما أنت كمن وسط ، لا يحسن فيطرب ، ولا يسيء فيلجى ، وليس من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، حتى يكون نفسك من نفسك ، وقلبك من قلبك ، وحتى تتناول الوضيع قرفعه ، والرفع فتضمه ، والقبیح فتجسته »

وقد بحث ابن شهيد في مقدار الطبع وتركيبه في النفوس ، وأثره في صور الكلام وتفويق المعاني ، وذهب في البحث منهجاً فلسفياً فقال : « مقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه مستوية على جسمه من أصل تركيبه ، كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في أجل هيأتها ، وأروق لباساتها ، ومن كان جسمه مستويًا على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال » ومن رأى ابن شهيد أن للأعضاء الظاهرة تأثيراً على الملامح الباطنة ، فتجده يقول في جملة من أدباء قرطبة « إنهم يذكرون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ، وتصيرهم بالآلة هو من طريق اللل الداخلة من فساد الآلة القابلة الروحانية والحادمة لآلات الفهم ، والباعثة لرقيق الدم في الشريان إلى القلب ، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وتقصاها عن المقدار الطبيعي ما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كقرطحة الرأس وتسفيطه ، وتواء التمججوة ، والتواء الشدق ، وخزخز العين ، وغلظ الأنف ، وأثراء الأرنبة » وهذا المذهب قريب الشبه من مذهب النقاد الفرنسيين في القرن التاسع عشر الذين استخدموا القوانين العلمية في النقد الأدبي ودراسة الشخصيات ، وهو أشد قرباً من مذهب النقاد المشهور « سانت بوف » . فقد كان هذا الباحث يعمل على تطبيق علم التشريح ، وعلمى - الفسيولوجيا والبكولوجيا - على تراجم الشعراء والكتاب ، وكان يتعمق في بحث النفسيات ، ويهتم بالعرض كما يهتم بالجوهري ، ويبحث عن شكل صاحب الترجمة الظاهر ، من الطول أو القصر ، والنحول أو البدانة ، والقبیح أو الجمال ، ليستطيع أن يدرك مقدار استمداده ومواهبه ، وما عنده من صفاء الروح وقوة الطبع . ولكن ابن شهيد كاترى

من نسيم الفهم ، فاعد على بشيء تصنعه . وكان ذلك اليهودي ساكتاً يبي ما أقول ، فندا ذلك القرطبي فأنشدني :
 حلفت برت مكة والجبال لقد وزنت لروسي بالجبال
 في آيات تشبهه ، وجاء اليهودي فأنشدني :
 أعم ركبانهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا
 واستمر الى آخر القصيدة فأني بكل حسن . فقال لي ذلك القرطبي شعر اليهودي أحسن من شمري ، قلت : ولا بأس بفهمك إذا عرفت هذا ، ولم يزل يتدرب باختلافه الى حتى ندى تره ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه . . .
 والظاهر أن مسألة استعمال الغريب واختيار الألفاظ كانت من المسائل التي شغلت أذهان النقاد في عصر ابن شهيد وقبله ، فقد عالج هذه الناحية أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ، وكان من رأيه « أن تخير الألفاظ ، وإبدال بعضها من بعض من أحسن نموت الكلام ، وأزين صفاته ، فإن أمكن مع ذلك منظوماً من حروف سهلة الخارج كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه . . . فينبغي أن يجعل كلامك مشتبهاً أولاً ، وآخره ، ومطابقاً هادياً (١) لعجزه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتنافر أطرافه ، فتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ، ومقرونة بلفقها ، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام » والظاهر أن العسكري قد تابع غيره في هذا الكلام ، فقد روى عن أبي أحمد . . . أنه قال : « كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب ، يختلف الى مدرك تعلم منه الشعر . . . فقال لنا إذا وضعت الكلمة بلفقها كنتم شمراء » وقد يطول بنا القول ، لو أخذنا نقصي أقوال النقاد في هذه الناحية ، وإنما آثرنا كلام العسكري لأنه في مجموعته قريب الشبه بكلام ابن شهيد ، فقد قال بتأخي الكلمات ، وتخجيز الألفاظ ، ومرعاة الحروف ، وهذا هو معنى قول ابن شهيد : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسب القريب القريب ، وطابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وكنتم شمراء » إلا أن كلام ابن شهيد أدق وأعم ، كما أنه يمتاز بالقول في اختبار الوضع النحوي للكلام مما ساء ملاحظة النحو ، وهذا مالا يسبقه اليه أحد من النقاد ، فبذا لو درج الأدباء في أساليبهم من هذه الجهة على النهج الذي أوضحه ابن

له فضل سبق الى تقرير هذه الآراء ، ولقد أصاب ابن شهيد في كل ما قرره ، ووفق في شرحه وتعليقه ، فلا جرم أن الطبع هو سر البلاغة ، ومبث الصفاء وحسن الرونق في صور الكلام ، وأن علوم اللغة والنحو والتصريف لا تجدى مع القلوب الغليظة ، ولا تخدم في الفطن الحثة ، وإنما يسمو الكلام ويرتفع بقدر سمو طبع قائله ، وشرف نفسه وصفاء روحه ؛ وليس معنى هذا أن ابن شهيد يطلق الكلام في الخط من قيمة علوم اللغة والغريب ، أو ينكر فائدتها في تكوين شخصية الأديب ، بل إنه يقر بفضلها ويعترف بفائدتها ككامل مساعد على نمو الطبع وتقوية الروح ، إلا أنه يرى أن استعمال الغريب واستخدام النحو مما يحتاج الى الدقة والبراعة ، فليس من الفصاحة أن تخرج العبارة في أي وضع نحوي ، أو تجرى غريب اللغة على أي وجه كان ، ولكن الفصاحة أن تختار ألمح النحو وأفصح الغريب ، بمعنى أن تكون العبارة على الوضع النحوي الذي يتفق والمعنى البياني ، وبمعنى أن تكون الكلمات الغريبة في وضعها اللائق ، ومكانها المناسب ، فإن بين الألفاظ قرابة يجب أن تراعى في الوضع . وقد جلا ابن شهيد هذه النظرية الدقيقة في حكاية رواها عما كان يقع بينه وبين تلاميذه فقال : « جلس الى يوماً يوسف الأسرائيلي ، وكان أفهم تلميذ مر بي وأنا أوصي رجلاً عزيزاً على من أهل قرطبة ، وأقول له إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسب القريب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المناظر . أفهمت ؟ قال : أي والله ، قلت وللمرئية إذا طلبت ، وللصراحة إذا التمس ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر . أفهمت ؟ قال : نعم ، قلت وكما تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه ، قال : أجل ، قلت : أفهم شيئاً من عيون كلام القائل :
 لمعرك أتي يوم بانوا فلم أمت خفاناً على آثارهم لمعجور
 غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
 ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير
 فقال : أي والله ، وقت « خفاناً » موقفاً لذيداً ، ووضعت « رميت » و « متن الطريق » موضعاً مليحاً ، وسرى « غصن يراح مطير » مسرى لطيفاً ، فقلت له أرجو أنك تنسنت شيئاً